

الحمد لله رب العالمين

لله الحمد
فرب العالمين

أَكْثِرُ الْجُنُوبِ

www.dawatmemoo.com

دَلَالُ الْبَرَكَاتِ

من - جود

(١٥)

أَمْ كَخِيرٌ لِبْتُ الْحَرِيش

* تابعية ، فصيحة ، شجاعة ، وفدت على معاوية ، قوله بالحق ،
حكيمة ، لها أقوال مأثورة ،

أم الحسن بنت الحريش

المترفة العظمى :

* بعد عام الجماعة ، ومع صلح الحسن بن علي معاوية - رضي الله عنهما - ، ظلَّ حُبُّ كثيرٍ من الناس لآلِ البيت ، وشجرة رسول الله ﷺ لا صنفًا يقلُّونَهُ ، متغلغلًا في نفوسهم .

* ومع قرفهم من عصر النبوة ، ومعرفتهم آل بيت النبوة ، فقد كانوا يُنزلونَ آل النبي ﷺ من قلوبهم أسمى المنازل وأقدسها ، ويعتقدونَ حبَّهم ديناً وعقيدة؛ لأنَّه حُبُّ لرسول الله ﷺ ، وقربة يتقرَّبونَ بها إلى الله عزَّ وجلَّ ، وحيثُمْ هذا حُبُّ يمثله قول المكوف في آل سيدنا محمد ﷺ :

أَحْكَمَ حَبًّا عَلَى اللَّهِ أَجْرَهُ
تَعْصِمُهُ الْأَحْشَاءُ وَاللَّحْمُ وَالدَّمُ^(١)

* من هذه الفئة الكريمة تأتي تابعة عرفت باسم : أم الحسن بنت الحريش بن سراقة البارقي الكوفيَّة^(٢) ، إحدى النساء الالاتي قدمنَ على معاوية - رضي الله عنه - ، وكان لها معه حدِيثٌ ومحاورة تفصح عن

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (٣٨٩/١) .

(٢) تاريخ دمشق (ص ٥٦٢) ، والعقد الفريد (١١٥/٢) ، وأعلام النساء (٣٨٩/١) .

باللغة مكتوبة وجزالة رصينة ، وظاهر فصاحتها البينة وقوّة حجتها
وشجاعتها وكمال أدبها .

* وقد عرفت أم الخير بنت الحريش بأنّها متكلمة بلغة من بلغات
الكوفة ، وذات رأي سياسي معروف لدى العاصمة الأموية بدمشق ،
وأنّها ذات لسان لا يقاومه السنان ، ولعلّ كلماتها في بعض المواقف
كانت أشدّ تأثيراً من سيف الرجال ، فهل أتاكم نبأ قدوتها على
معاوية ؟ .

* * *

أم الخير وكتاب معاوية :

* يبدو من ثنايا الأخبار التي وصلتنا عن أم الخير هذه ، أنّها امرأة
ذات مكانة لا يُستهان بها في قومها ، وذات مكانة واحترام عند معاوية
أيضاً ، وكما تدلّ الأخبار بأنّ رأيها كان احترام من ولاة الكوفة ،
وكلّهم يحسب لها حساباً ، حيث إنّها عرفت بالاستقامة وعدم المخايبة
لأحد ، واشتهرت بالصراحة التامة والجرأة فيها تحبّ أن تقول ، لهذا كله
نالت أم الخير احترام جميع الناس .

* ولما استقرَّ الأمر لمعاوية رضي الله عنه ، - وكان يعرف أم الخير من
قبل - أحبّ أن يسمع إلى أثارة من كلامها ، ونبذ من حكمتها
وفصاحتها ، لعلم رأيها - الحالى - فيه وفي دولته .

* وتحمّل الروايات التي وعّتها المصادر بأنّ معاوية - رضي الله عنه -
كتب إلى واليه بالكوفة أنّ أوفد على أم الخير بنت الحريش بن سراقة

البارقة ، وأوصاه أن تكون رحلتها رحلة محمودة الصحبة ، غير مذمومة العاقبة ، وأعلم أنه مجازيه بقوها فيه بالخير خيراً ، وبالشر شراً .

* فلما ورد الكتاب على الوالي^(١) أسرع وركب إليها ، فأقرأها كتاب أمير المؤمنين إياه ، عندئذ قالت له :

أَمَا أَنَا فغَيْرُ زائِفَةِ عَنْ طَاعَةِ ، وَلَا مَعْتَلَةَ بِكَذَبِ ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَحَبُّ لِقَاءَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِأَمْوَارِ تَخْتَلِجُ فِي صَدْرِي ، تَجْرِي بِحْرِي النَّفْسِ ، يَغْلِي بِهَا عَلَى الْمَرْجَلِ يَحْبُّ الْلُّسُونَ - الْعَدْسَ - يَوْقَدُ بَحْرَلِ السُّمْرَ - أَصْلَ الشَّجَرِ - .

* * *

صَرَاخُهَا وَقَوْلُهَا لِلْحَقِّ :

* واستعدت أم الحیر للتوجه إلى الشام ، ولقاء أمير المؤمنين معاوية ، وكان الوالي يبرأ بها ويلطف أشد اللطف عساها أن تذكره بخير عند أمير

(١) لعل الوالي هو المغيرة من بنية . قال الطبری : وفقم المغيرة على الكوفة عاملةً لمعاوية بع سین وأشهرأ ، وقد ولها سنة (٤٩ هـ) .

والمحبہ بن شعبة بن أبي عامر بن سعد التميمي ، أبو عبد الله ، من كبار الصحابة أولى الشجاعة والنكدة ، يقال له : مغيرة الرأی . ولد بالطائف سنة (٢٠ قـ هـ) وأسلم سنة (٥ هـ) ، وشهد بيعة الرضوان والنجاشي وفتح الشام ، وذهب عنده بالبرهون ؟ ولاه حمر على البصرة ثم ولاه الكوفة ، وأقره عثمان على الكوفة تم عزله ؟ وما حدثت الفتنة بين علي ومعاوية اعتبرها المغيرة . ثم ولاه معاوية الكوفة فلم ينزل فيها إلى أن مات في شعبان سنة (٥٠ هـ) ولم يمبعون سنة ، وللمغيرة (١٣٦ حديثاً) وهو أول من وضع ديوان المغيرة ، وأنول من تلم عليه بالإمرة في الإسلام وأعياده كثيرة . رضي الله عنه . (سير أعلام النبلاء : ٢١/٣٦) ، و (الأعلام : ٢٧٧/٧) .

المؤمنين ؟ ولكن أمّ الحُمَر ليست كغيرها من النساء اللاتي تأخذهن العاطفة ذات اليمين وذات الشمال ، بل كانت جريئة تحبُ قول الحق من أجل الحق ، وهذا ما أفضت به إلى الوالي وأفهمته إياه ، إذ إنه لما حملها وشيعها ، وجهزها أفضل جهاز وأحسنه ، وأراد مفارقتها قال لها : يا أم الحُمَر ، إن معاوية أمير المؤمنين كتب إلى الله يجازيكي بقولك في بالحُمَر خيراً ، وبالثُمُر شراً ، فانظري كيف تكونين ؟

قالت : يا هذا ، لا يطمعنُك - والله - برَك بي في تزويعي الباطل فأمسِرْك به ، ولا تؤيسيك معرفتي بك أن أقول فيك غير الحق .

* وبهذا برهنت أم الحُمَر على استقامتها في حياتها ، وعلى صراحتها قوله وفعله ، ووحدت أن تقول الحق ، وأن تضع النقاط في أماكنها من الحروف ، فلا وجَل ولا خوف إلا من الله سبحانه وتعالى .

* * *

ذكريات في مجلس معاوية :

* تركت أم الحُمَر البصرة ، وتوجهت تلقاء دمشق ، وسارت خبر مسيرة ، فلما قدمت على معاوية - رضي الله عنه - أزدحها بيته مع الحرم ثلاثة أيام ، ثم أذن لها في اليوم الرابع بالدخول عليه ، وعند ذلك جلسواه وحواصه .

قالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

قال : وعليك السلام يا أم الحُمَر ، وبالرغم منك دعوني بهذا الاسم .

قالت : منه يا هذا ، فإن بديهي - مفاجأة - السلطان مُذخصة

— مبطلة — لما يحب علمه ، ولكل أجل كتاب .

قال : صدقت يا خالة ، فكيف حالك ؟ وكيف كنت في مسيرك ؟

قالت : لم أزل في عافية وسلامة حتى صررت إليك ، فأننا في مجلس أنيق ، عند ملوك رفيق .

فقال معاوية : بحسن نبي - والله - ظفرت بكم ، وأعنت عليكم .

قالت : منه يا هذا ، والله لك من دحضر المقال ما ثردى عاقبته .

قال : ليس لهذا أردناك يا أم الخير .

فقالت : إنما أجري في ميدانك ؛ إذا أجريت شيئاً أجريته ، فاسأل عمما بدا لك .

قال معاوية : أخبرينا كيف كان كلامك يوم فعل عمار بن ياسر رضي الله عنه ؟

قالت أم الخير : لم أكن والله زوجته قبل ، ولا زورته بعد^(١) ، وإنما كانت - يومها - كلمات نفثهن لسانى عند الصدمة ، فإن شئت أن أخذت لك مقالاً غير ذلك فعلت وقلت .

قال : لا أشاء ذلك يا أم الخير .

ثم بعد ذلك التفت معاوية إلى أصحابه وجلسائه ، وقد عاودته ذكريات قديمة - فقال لهم : أيكم يحفظ كلام أم الخير يومذاك ؟

(١) « رويت في الأمر » : فكرت فيه . و « زورت الكلام » : زيتها وحسناته وهدتها .

فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي لسورة
الحمد - الفاتحة -

فقال معاوية : فهاته .

قال : نعم ، كأني بها يا أمير المؤمنين في ذلك اليوم ، وعليها ثرثرة زيدى^(١) كثيف النسج ، وهي على جملة أرمك - رمادي اللون - وقد أحيط حوالها خواء^(٢) ، وبiederها سوط متشر الصفيرة ، وهي كالقحول يهدو في شقيقتيه تقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رِبَّكُمْ إِنَّ زِلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : ٦] ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَوْضَعَ الْحَقَّ ، وَأَبَانَ الدَّلِيلَ ، وَنُورَ السَّبِيلَ ، وَرَفَعَ الْعِلْمَ ، فَلَمْ يَدْعُكُمْ فِي عَمَيَاءِ مَهْمَةٍ ، وَلَا سُودَاءَ مَدْهَمَةٍ ، فَإِنَّ أَيْنَ تَرِيدُونَ رَحْمَكُمُ اللَّهُ ؟ أَفَرَا أَعْنَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - عَلَى - أَمْ رَغْبَةَ عَنِ الْإِسْلَامِ ، أَمْ ارْتِدَادًا عَنِ الْحَقِّ ! أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ﴿ وَلَنْ يُلُونَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُو أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] هَلْمُوا رَحْمَكُمُ اللَّهُ إِلَى الْإِمَامِ الْعَادِلِ .

ثم قالت : ﴿ قَاتَلُوا أَئِمَّةَ الْكُفَّارِ إِنَّهُمْ لَا إِيمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَهَوَّنُ ﴾ [التوبه : ١٢] ، صَرِيرًا معاشر المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم ، فـ كـ أـ كـ بـ كـ غـ دـ لـ قـ يـمـ أـ هـ لـ الشـ اـ شـ ﴿ كَأَنَّهُمْ خُصُّرٌ مُسْتَفْرِهَةٌ * فَرَثُوا مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ [القيامة : ٥٠ و ٥١] ، لا تدرى أين يُسلِّكُ بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة

(١) الزيدى : نسبة إلى زيد بلدة باتين مشبورة .

(٢) الخواء : ما يأخذ كالوسادة على الرجل .

بالدنيا ، واشترىوا العصالة بالهدى ، وباعوا بصيرة بالعمى ، **﴿فَوَعْدًا**
قليلٍ لِّيُصْبِحُنَّ فَادْمَنُونَ﴾ [المؤمنون : ٤٠] حين تخلّ بهم النّدامة ،
فَيَطْلَبُونَ إِلَاقَةً **﴿وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾** [ص : ٣٠]

ثم قالت : إلى أين ت يريدون رحمة الله ؟ سُئل ابن عم رسول الله عليه صلوات الله عليه
 وزوج ابنته ، ها هو مُفلق الهاشم ، ومكثر الأصنام ، إذ
 صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس مرتباون ؛ فقد اجتهدت في القول ،
 وبالغت في التصحيحة ، وبالله التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله
 وبركاته ^(١) .

فقال معاوية : والله يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي والله لو
 قتلتكم ما خرجت - ألمت - في ذلك .

قالت : والله ما يسُؤلني أن يُجري الله قتلي على يدي من يسعدني الله
 بشقاشه ! .

* * *

فَذَ أَغْفَيْتُكِ :

* بعد أن انتهى هذا الحوار الذي يدل على شجاعة أم الخير وعلى
 بلاغتها بآن واحد ، أحب معاوية - رضي الله عنه - أن يعرف رأيها في
 فضلاء الصحابة وأسيادهم ، وأن تصفهم بلاغتها وفضاحتها ، ففعلت لما
 سألاها عن سيدنا عثمان وطلحة والزبير رضي الله عنهم ، وأجابته إجابة

(١) عن تاريخ دمشق (ص ٥١٣ - ٥١٥) ، والعقد الفريد (١١٥١٢ - ١١٨)،
 وأعلام النساء (١/٣٩٤ - ٨٣٩) بنيه من التصريف والاختصار .

شافية كافية صادقة ، ووافت كل ذي حق منهم حقه من الإعظام والتكريم ، وما هو له أهل – رضي الله عنهم – .

وابتدأ معاوية سؤاله لها فقال : يا أم الخير ، ما تقولين في عثمان بن عفان أمير المؤمنين وثالث الخلفاء الراشدين رضي الله عنه ؟

قالت : وما عصيت أن أقول فيه ! استخلفه الناس وهم عنه راضون ، وقتلوه وهم له كارهون .

قال معاوية : أيها – حسبيك – يا أم الخير ! هذا والله أحسبي الذي يُبيهين^(١) عليه ؟ قالت :

﴿لَكُنَ اللَّهُ يَشْهِدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهِدُونَ وَكَفَى
بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء : ٦٥] والله ما أردت بعثمان نقصاً ، ولقد كان
سباقاً إلى الخير ، وأنه لرفع الدرجة غداً عند مليك مقتدر .

* وسكت معاوية – رضي الله عنه – لحظات ثم سألاها قائلاً : فما
تقولين في طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ؟

قالت : وما عصي أن أقول في طلحة رضي الله عنه ؟ اغتيل في مأمه ،

(١) يريد أن سوء رأيها في عثمان – رضي الله عنه – هو الذي دفعها إلى مناصرة على رضي الله عنه .

(٢) طلحة بن عبيد الله : أحد السابعين الأولين ، والأبطال المتعلمين ، وعشرة عشرة يশرهم رسول الله ﷺ بالحنة ، وسادس سنة اختارهم عشر – رضي الله عنه ليكون مهتم الخليفة من بعده ، وأول صحابي يابع علياً – رضي الله عنه يوم الحمل ، وأحب هنالك بهم أودي به – رضي الله عنه وزاربه – ، وأخباره كثيرة مباركة لا تحصر في كتاب .

وأُتي من حيث لم يحضر ، وقد وعده رسول الله عليه صلواته الجنة .

فأردف معاوية قائلاً : فما تقولين في الزبير بن العوام^(١) رضي الله عنه ؟

قالت : يا هذا لا تدعني كرجيع التوب الصبيغ يعرك في المركن^(٢) .

قال معاوية : حقاً تقولن ، وقد عزرت عليك .

قالت : وما عزمت أن أقول في الزبير ابن عمّة رسول الله عليه صلواته وحواريه ، وقد شهد له رسول الله عليه صلواته بالجنة ، ولقد كان سباقاً إلى كل مكرمة في الإسلام رضي الله تعالى عنه .

ثم صمت لحظات ، وأحببت أن يعفيها من مثل هذه الأسئلة ، أو أن يغير الحديث فقالت : وإنني أسألك بحق الله يا معاوية ، فإن قرضاً تحدثت به أحلمها ، فانا أسألك أن تسعني بفضل حلمك ، وأن تعفي من هذه المسائل ، وتسألني عمما شئت من غيرها .

قال : قد فعلت ، ونعمت عين ، وقد أعنفتك منها . ثم أمر بها فردها

(١) كان أمراً للزبير حيال علي - رضي الله عنها - شبهها بأمر طلحة ، كان قد انضم أيضاً إلى جند عائشة - رضي الله عنها - ، فأرسل إليه عليٌّ يذكره بقول رسول الله عليه صلواته له : « إنما تقاتل عباً - وانت له خالم » فاتجه عن الموقف فراراً من الماء وحوداً إلى الحق ، فلما انتهى إلى واد يقال له : وادي أبناء أحده القوم داعيدها رجل من مجاشع يقال له : سحرو بن حمرون .

(٢) « الصبيغ » : التوب المصحوغ ، « العرك » : الدملوك والحلق ، المركن : الآية التي : لا تتركني كالنوب المصحوغ الذي يدلكت فيغير الماء . والمعنى : تزيد من معاوية لا يدرك كوعن نفسها ، وبقدر حفاظها الذهني والشخصي .

إلى الكوفة مكرّمةً بعد أن وصلها بجائزة رفيعة ، وأحسن منقلها^(١) .

* * *

نبذة من حكمها ورثائقها :

* إنَّ امرأة مثل أم الحسن بنت الحسين البارقية ، أُوتِيَتْ من الفصاحة والبلاغة ما يعجز عنه البلاء ، لحدِّيرة أنَّ تؤثر عنها الرقائق والحكم التي تصقل النفوس ، وتهذب الطباع ، وترقق القلوب ، وتذهبها من منابع الصفاء . فمن روائع أقوالها التي أثرت عنها - يوم صفين - قولها تناجي الله عزُّ وجلُّ ، فقد ورد إليها رفعت رأسها إلى السماء وقالت : اللهم إله قد عيل الصبر ، وضعف البدين ، وانتشرت الرغبة ، وبيدك اللهم أزمة القلوب ، فاجمع اللهم الكلمة على التقوى ، والقف القلوب على الهدى .

* ومن بديع قوله في بيان أهل الحق ، وبيان أهل الباطل قوله أيضاً : منْ ضلَّ عنَّ الْحَقِّ ، وَقَعَ فِي الْبَاطِلِ ، وَمَنْ لَمْ يُسْكِنْ الْجَنَّةَ نَزَلَ الشَّارِ ، إنَّ الْأَكْيَاسَ اسْتَقْصَرُوا عَمْرَ الدُّنْيَا فَرَضُوهَا ، وَاسْتَطَالُوا مَدَّ الْآخِرَةِ فَسَعُوا لَهَا . ولو لا أن يبطل الحق ، ويظهر الظالمون ، وتقوى كلمة الشيطان لما اختاروا ورود المنيا على خفصن العيش وطيبه^(٢) .

* تلكم هي أم الحسن بنت الحسين البارقية ، وتلكم هو وفاؤها ورأيها ، وتلك أخلاق القوم عصر ذلك ، أخلاق فيها صراوة وجراوة وعنف بالقول - أحياناً - وحرابة رأي ، وقوه شكيمة .

(١) عن العقد الفريد (١١٨/٣ و ١١٩) تخرّج بغير جداً .

(٢) انظر تاريخ دمشق (ص ١١٤ و ٥٦٥) .

* وقد استمعنا إلى رأي أم الحير في تلك المشكلة التي أسالت
الدعاء ، وحيث إن العقول حيناً من الدهر ، ورأينا صورة فريدة عن المرأة
التابعية في خطابتها ووقفها أمام الخلفاء ، وإعلان رأيها صراحة في آل
البيت وبني هاشم ، هؤلاء الذين :

نور النبوة والمكارم فيهم
من وقده في التغذية والأطفال

* رحم الله أم الحير البارقة ، وجعلها مع الأنبياء .

* * *